ومعنى الدين الطاعة للتعاليم ويتكون من هذه الطاعة السمو ية قوة يكون عظمها على مبلغ أهليها من قوة الابدان والعقول والقلوب وكثرة الافراد. وكيف ما كانت فان هذه الرابطة تقضي ان يكون الكل في أنفسهم وامام غيرهم كرجل واحد. ويظهر ان من مقتضياتها ايجاد ثانية كبرى تضاءل بل تتلاشى فيها الغيرية حتى لا يكون لامة غير. ولكن هذا الاتم من جهتها حتى يعلم افراد كل أمة حق العلم ماهو الجوهر الحقيقي للدين القويم. ويعملوا حق العمل بما يطبع في النفس ذلك الجوهر المطلوب.

وقد استبعد هذا القوم فحكموا ان الاديان لم تزد الناس الا تعادي وزعموا انها لم تك الا زيا آخر من أزياء الرابطة القومية من ركناها قليلا بما هذبت فيه يد التجارب وتقموا منها تضييق الدائرة على الناس في تصوراتهم وفي عاداتهم وأعمالهم بكثرة ما يأتيهم مؤسسوها من فروع الامر والنهي. والقطع والجزم. في مسائل يحتاج في ادراك اسرارها الى تبصر عقل سليم، وتروي ارادة معتدلة. ويغرق هؤلاء بما تصف ألسنتهم وأقلامهم من الاديان حتى يبعدوا عن الحكمة وهم يظنون القرب منها. ويضلوا الحقيقة وهم يرون انهم وجدوها.

ولذلك ناسب ان نأتي في نبذ تاهذه بما يفند من مزاعمهم ونبين لهم ولغيرهم منشأ هذه المزاعم ليتفكر من يتفكر، ويتذكر من يتذكر: ثمة بقية (ع ز)

بلرم - صقلية

٣

(مسينا ومقبرتها)

نسبت ان أضع في جانب المقابر مقبرة مسينا وهي مقبرة في الجنوب الغربي من المدينة وانك اذا قلت لصقلي: اني ذاهب الى مسينا: يقول لك في الحال: لا يدان ترى المقبرة: وهي جزء من المدينة تحسب مدينة بنفسها فيها مدافن للامراء والاعيان مبنية على أجمل نظام وأقربه الى السذاجة وفيها مكان شاخ رفيع يدفن فيه أرباب الشهرة من المهندسين والشعراء ونحوهم. وطريقة الدفن في تلك الاماكن تختلف فبعضها على الطريقة المعهودة من وضع صندوق الجثة تحت الارض وبعضها بوضعه في صندوق ضخم كبير لا يمكن سرقته على ظهر الارض، وبعضها في بيوت تفرض في عرض الجدر المرتفعة

وهكذا . والمقبرة مزينة بأغراس من شجر الصنوبر وضرب من فصيلة الصنوبر يشبه الاثل وليس به ولا أعرف اسمه بالعربية سوى انه شيء من كبار الطرفا لكنها نظمت بيد أوربية تعرف كيف تخضع النبات لارادتها فتوجهه الى الوجهة التي تريد . والطرق فيها على غاية ما يرام من النظافة والانتظام ، وهي انظف وأجمل من كثير من شوارع مدينة لاحياء (مسينا) ثم انها تأخذ من أسفل الطريق الى قمة جبل اذا صعدت عليه نظرت وأنت في المقبرة من البحر والساحل أجمل ما تنظر عيناك من اللألاء والنضرة في المواقع المختلفة ، ومن الاشكال الطبيعية ، وبدائع الاعمال الصناعية ،

يظهر ان المقبرة أعجبتني حتى انطلق قلمي في وصفها كأنه قلم صاحب جريدة ينطلق في السياسة المصرية لبيان مناحيها ، ووصف ضواحيها ؛ — أعوذ بالله — يوجد في هذه المقبرة مواضع مخصوصة للفقراء قد صفت فيها قبورهم على نظام محكم تراها كأنها خطوط مزارع القطن في أرض غير معتدلة تقصر وتطول وعلى رأس كل قبر صليب أسود يخيل للرائي من بعيد أنها أجنحة الغربان الجاثمة على بقايا الجثمان . لا ازال في وصف المقبرة كما لا يزال بعض الغافلين عن أنفسهم في بلادنا يشتغلون بالسياسة عن الادب والكياسة

ماذا أقول في وصف هذه المقبرة ؟ مدينة جميلة المناظر ، بديعة المداخل ، بعيدة المخارج ، الداخل فيها أكثر من الخارج منها ، قد اختير لها شجر الصنوبر زينة من بين الاشجار ، لانه في خضرة دائمة وحياة مستمرة ، كأن ارواح من يموت تنتقل اليه بعد مفارقة الاجساد فهو لا يزال دائم الحياة في الصيف وفي الشتاء والخريف والربيع ، مدينة زينها الاحياء في حياتهم ، ليعدوها لاقامتهم — فيما يزعمون — بعد مماتهم ، وهكذا من كان على يقين من الرحيل الى دار هيأ تلك الدار للسكنى وأعد لنفسه فيها أنواع النعيم ليطيب له المقام ، ولا يقلق به المكان ؛ لكن هل يكفي أن تزين لنفسك مقرا لجثتك وأنت لا تدري هل تشعر هناك بما زينت ، أو تؤخذ عنه اذا مت ، فهل زينت دارا لروحك بالطيبات ، كما زينت دارا لجثتك بالزهر والنبات ، ؟ أخاطبك وأنت مصري من سكان القاهرة لا ترى في مقبرتك ولا في الطريق الموصلة اليها الا ما يخيفك من الموت وينغصك فيه ؛ غبر من الغبار ، وتلول من التراب ، تتذكر بها أنك من التراب والى التراب ،

اذا بنيت فيها مسكنا فلست تبنيه لنفسك يوم تموت ولكن تبنيه لتقيم فيه بعد الاموات وتشاركهم في المسكن وأنت حي تقضي فيه الايام من رجب ومن شعبان ومن شوال ومن ذي الحجة وبعض أيام من بقية الشهور تأكل وتشرب وتنام ولا تشبه جيرانك من أهل المقابر الا في النوم الثقيل ولا تستحي من معاشرتهم وأنت تأكل وهم لا يأكلون، وتضحك وهم ربما يبكون، وتلعب وهم لا يلعبون، تلهو بالقيل والقال، وملاعبة النساء والاطفال، وربما أقمت في المقبرة مستسيه بالموالد وجلبت بذلك اليها من المغنين والمطربين والهازفين، ونصبت فيها الخيام، وصنعت من لذيذ الطعام، ما تدعو الى تناوله العلماء الاعلام، والاتقياء الكرام، فيلبوا دعوتك زرافات ووحدانا: مشاة وركبانا، ويخوضون في غمار اللاهين الى ان يصلوا الى حيث نصبت خيامك، وهيأت طعامك، على ظهور الاموات، وبجوار تلك الرفات. وتبيت ليلتك تلهو وتلعب، وتصيح وتصخب، كأن الموت قد فارق ديارك، وكره جوارك، وفر من بين يديك، مشمئزا مما يرى لديك؛ اما مقبرة مسينا فلا ترى فيها آكلا ولا شاربا وانما ترى الزائرين في سكينة ووقار لا يتكلمون الا همسا، تماشيهم ولا تكاد تسمع لهم جرسا.

﴿ صخب الصقليين وتسولهم وكسلهم ﴾

أهل مسينا من اهالي سيسيليا وسيسيليا هي جزيرة صقلية التي ملك فيها العرب نحو مئتي سنة وكان منها كثير من العلماء والفقهاء والمؤرخين والفلاسفة والصوفية وبعض الزنادقة وكل صنف من صنوف أهل العلم والمنتسبين اليه كما كان في العراق والشام والاندلس. وقد ترك العرب آثارا في البلاد منها ما تقدم ذكره وهو مما لا يذكر ومنها كلمات في لسانهم كثيرة كالشروق للريح الشرقية وكالقبة والطلعة والشر ونحو ذلك من الكلمات التي ترشدك لأول وهلة الى أصلها والى البلاد التي حملت منها. ولا أظن ان الصياح والصخب الذي اختص به اهالي سيسيليا يكون من ميراث العرب رحمهم الله فان اصوات السيسيليين أشد قرعا، وآلم في الاذن وقعا. واني لا أشك في ان حناجرهم أشد تمرنا على الصراخ بغير داع من حناجر أهل كفر الجاموس (*) أو سكان عرب يسار، أما العرب فكانوا يصيحون في الحرب والجلاد، ويسكتون عند الرجوع الى البلاد. ولعل هؤلاء استعملوا

(*) كفر الجاموس مزرعة بالقرب من عين شمس في ضواحي مصر

في السلم ما كان يستعمله أولئك في الحرب كما يفعل بحرية يافا وبيروت من ثغور سوريا أما الاهمال والكسل فلا أدري هل هو من طبيعة البلاد أو من ميراث تركه بعض السلف من الفاتحين ؟

ويل لك اذا عرفت بأنك غريب فانه يتبعك السائلون الملحفون ، والمكتدون المجدون ، ويلزمونك حتى تعطي شيئا من النقد ، ولا فرق في حالك بين ان تجلس في قهوة ، أو تكون في زيارة معبد ، أو في تفقد مكتبة أو دار آثار ، تجد من ذلك مالا تجده عند المتبولي ولا عند ضريح الاستاذ اليومي (رضي الله عنه) ثم تجد الناس في الساحات وقوفا أو جوالين لا يدرون ماذا يعملون وانما يتقرب الى الغرباء من يظن القدرة في نفسه على ان يفترس منهم فريسة لكن يمكنك ان كان عندك صبر أيوب وسماحة بعض السابين عندنا من المصريين أو السوريين ان لا تعطي شيئا أو تهرب اذا أردت

لعلك تفرست شيئا من الكسل في حكاية ماوقع في فهرس الكتب العربية في المكتبة العمومية ، ودفتر الاسماء في دار المحفوظات ، وأزيدك انك اذا ذهبت عند شركة الملاحة (بكسر الميم وتخفيف اللام لا الملاحة بفتح الميم وتشديد اللام كما يقول بعض أكابرنا فان التشديد يجعل الكلمة موضعا للملح الذي يوضع على الطعام ويتناول أحيانا للاسهال . أما التخفيف فهو اللازم في اسم الشركة لخفة مراكبها في السفر على البحر المالح وأظن اللفظ يرجع أيضا الى رفيقه فان في البحر ملحا أيضا لكنه ليس يكثر كالذي في تلك الكلمة المشددة) وجئت مكتب الشركة لتطلب تذكرة سفر مثلا تجد العامل يحرك يده ببطء كأن بعض أجزائه ينازع بعضا فاذا فرغ من الكتابة على هذا الوجه الثقال أسرع بمد يده اليك لطلب المبلغ فاذا دفعته اليه وكانت لك بقية من النقد يلزمه ردها اليك كادت يده تشل عجانبه وأنت تنظر اليه وتنتظر أن تناول مالك وتنصرف وهو ينظر اليك كأنه يتمنى ان تنسى مالك عنده أو تمل الانتظار ويأخذك الوقت فتتركه له وهذا ضرب من الكسل في أداء الحق ونوع من البطء في العمل لا تجده حتى في مصر معرسها الله فان العمال عندنا حتى في زمن الصيف لا يسمحون لاعضائهم ان تعود هذه العادة الرديئة

﴿ رثاثة الصقليين ووساختهم ومقابلتهم بالمصريين ﴾

اما رثاثة الملابس عند الفقراء ودنس الثياب وعدم العناية بالنظافة في كثير من الشئون فذلك مما لا نجد له مثالا في كثير من الاحياء عندنا ، واني أقص عليك فكاهتين وقعتا في النزل الكبير التي نزلت فيه — رفع الله عماده — كنت أطالع في جريدة خطابا ألقاه بعض أساتذة السوربون في باريس لمناسبة رفع تمثال للكاتب المؤرخ الفرنسي رنان القاه في بلدة رنان التي ولد فيها وكنت مستغرقا فيما يقول الخطيب عن القيسين وتعاليمهم وعن الاحرار اطال الله في انفسهم وما يرونه في فلسفتهم واذا بخادم النزل دخل علي وتحت ابطه ولد صغير في الخامسة من سنه تقريبا وقد علا الوسخ وجه الصبي وهجم القذر على عينيه بريداً كلهما ، وانفه وفمه يسيلان ذلك مما تعرف وهنا مما لا يخفى عليك ويده عنقود عنب يتناول منه حبة بعد حبة وماء كل حبة يسيل من شدقيه اذا رأيته امكنك ان تحلف بشيء من الطلاق أو العتاق ان أمكن ان هذا من ذرية الشيخ الدعكي رحمه الله أو ان روح الاستاذ ظهرت في مظهره اللطيف ، واذا كنت واحدا من بعض الاعيان أو بعض من يزج بنفسه في العلماء الذين تعهدهم أقمت في الحال انه ولي من الاولياء مجذوب من المجاذيب . فاذا ذكرك مذكر أنه إيطالي قلت لا يبعد على الله ان يكون قد ملأ قلبه جذبا وولها ورزقه من ذلك في صغره ، مالم ينله الدعكي في كبره ، والا فكيف تسيل سعايبه الى هذا الحد ويكون ليس بمجذوب ؟ هذا خلف . وربما حملك حسن الاعتقاد على ان تذهب الى المحمل الذي تعرفه وتستخرج من بحر الانساب ما يصل نسبه بمن لا يصح لاحد ان ينتسب اليه مادام على مثل هذا الاعتقاد . فانظر بربك الى هذا الطباق والتقابل بين ما كنت مستغرقا فيه وبين ما فاجأني من هذا المنظر الكريه ، هل يمكنك ان تحدث نفسك بماذا دافعت عن نفسي في هذه الشدة ؟ دفعت فرنكا واحدا رميته على الارض فالتقطه الصبي كما يلتقط العصفور حبة الارز وكر راجعا لا يبالي بتأخر أبيه عنه ليشكرني على ذلك الاحسان كأن الصبي كان يخاف ان أتبعه لاخذ القرنك منه . لا تظن أني أبالغ في كلمة مما قلت فما رأيك بهذه الوساخة ! :

اما الفكاهة الثانية فقد كنت على مائدة الطعام في محل تومي من ذلك النزل لقلة السياح وسعة قاعة الطعام بحيث تكبر عن ان يجلس فيها شخص واحد فلما جاء صنف من الطعام يحتاج الى الملح تنبهت الى الملاحة (هذه المرة بتشديد اللام لان فيها ملحا) كما ترى . نظرت الى الملح فاذا فيه النقط السوداء أكثر من نزغات الشيطان في قلوب أهل الفسق والعصيان ، وأغزر من الخطيئات في بعض المزارات ، فنظرت الى الخادم وأخذت الملاحة وأنشأت أنكث ما فيها من

القط السوداء نكتة نكتة وأصعد نظري في وجه الخادم وأقلب وأظهر التقزز ولازلت كذلك حتى فهم أن هذا شيء من الوسخ لا أستطيع تناوله فعند ذلك تناول في الملاحة بغاية الكسل ثم ذهب وأطال الغيبة وبعدما كدت أغضب مع سعة حلمي في السفرجاء بملاحة أخرى أوسع من الاولى وأظهر منها ملحا فكأنه يفهم ان الوساخة مما لا يليق لكن لا يتم له هذا الفهم الا اذا قال له شخص آخر ان النظافة خير منها وان الوسخ شيء تتقزز منه النفس وينفر عنه الحس .

اما مثال هذه الواقعة الثانية فما يكثر في خدمنا بل في بعض سادات التتار قاتلهم الله حيا وميتا فانهم ينظرون بأعينهم الى الخبيث والخبائث ويسامحكم وافيه بوصفه لكنهم لا يزهون المكلف عنه بل ربما لا يزهون أنفسهم عن التلوث به الا اذا أمرهم بذلك آمر فعند ذلك يمتثلون الامر بغيرة المختار وعزيمة الجبار ثم يحدثك أحدهم بحسن ما يصنع مما أمر به كأنه هو الذي اندفع اليه من نفسه كأن الامر الصادر اليه هو الذي اكسب الشيء حسنه وحلاه بوصفه . وأعوذ بالله أن يكون هذا هو مذهب الاشاعرة الذين يقولون ان حسن الفعل هو الامر به وقبحه هو النهي عنه وانه لا حسن ولا قبح للشيء في ذاته فاني على يقين أنهم لا يعنون به ما يجده اولئك الآلات في أنفسهم . وما عليك الآن تبحث في رأي الفريقين حتى تقف بنفسك على تحقيق الشبه أو نفيه فاني الآن لا أكتب كتابا في علم الكلام ، ولا أكتب اسطري هذه الا فاضل من أهل الفن فانهم أعلى من ان يستفيدوا من قراءة امثال هذه القصص أوسع الله من عقولهم حتى تسع أهالي بلدم ومسيناما وما ذلك على الله بعزيز

الذي يخطر ببالي من أسباب ذلك اذا أخذنا بالجد أن هذا شأن العامة من الامم التي طال فيها زمن الاستبداد وتصرف الارادة الواحدة في جميع الارادات مع ما يطرأ على تلك الارادة الواحدة من الاختلال وفساد المزاج فتأمر بالشيء اليوم لانه من هواها وتنهى عنه غدا لانه لم يبق من مشتهاها وأمرها واجب الاطاعة ، وفي مخالفته إضاعة أي اضاعة . فتعود الانفس على تعاطي الاعمال لا لانها مما تختاره بل لانها مما تؤمر به ، ويخفى عليها وجه الحسن والقبح لأن التعود على العمل مهما كان قبيحا يزينه للنفس أو يسهل عليها مفارقته . وسهولة المفارقة انما تنشأ عن عدم الاحساس برائحة القبح ولو بقي تنته في شامة النفس لما فقدته ولما أمسكتها تعاطيه . وكذلك يخفى وجه الحسن في الشيء حتى يخفى وجه القبح في ضده كما لا يخفى عليك ان كنت من المدققين خصوصا في علم أصول الفقه الحنفي وقرأت ما كتبه العلامة الفنري والمحقق المفيد وغيرهما على التلويح للعلامة الثاني سعد الدين التفتازاني حاشية

التوضيح على مختصر البزدوي . اما اذا سألتني عن العلامة الاول في مقابلة العلامة الثاني فاني لا أذكره الآن وان صدق ظني يكون هو عبد القاهر الجرجاني ولكن الافضل لك أن تسأل شخصا آخر من مدرسي حاشية التجريد للبناني فان من يقرأ هذه الحاشية يسهل عليه وزن العلمين، وتحديد الفرق بين العلامتين . — وربما قال لك ان الاول هو القطب الشيرازي لان سهولة كلام الامام عبد القاهر وسلاسته تمنعهم من جعله العلامة الاول — وان شئت ان لا تشتغل بهذه المسألة فهو أفضل من ذلك الافضل ويكون أفضل التفضيل الاول على غير بابه والسلام . وانما المهم فيما نحن بصدده ان الارادة السليمة ، والطبيعة المستقيمة، يمكنها أن تميز الملح الظليف من الوسخ وتمشي بتقديم التظليف الى الضيف من أول الامر، بدون احتياج الى اصدار أمر، وقس على على ملح الطعام بقية الاملاح كالنحو وملح العلم والعلماء ملح العالم وهكذا كل ما يحتاج اليه في اصلاح الاغذية بدنية كانت أو روحية دنيوية كانت أو دينية . اما اذا كنت لا تميز ولا تفهم الا بأمر فتربص حتى يأتي الله بأمره والله شديد العقاب

الباب الحادي والعشرون

﴿ الاحتفال لتذكار تأسيس الدولة العلية ﴾

نرى الاوربيين في مصر يحتفلون في كل عام احتفالات عمومية لدولهم أهمها الاحتفال للجمهورية الفرنسية والاحتفال لاستقلال ايطاليا وان لهم في بلادهم من العناية بذلك اضعاف ما نرى منهم في بلادنا حتى انهم ليحتفلون للرجال العظماء الذين خدموا الامة خدمة جليلة . وبلاد مصر عثمانية ولكنها مستقلة عن الدولة في ادارتها وعامة شئونها وقد زال على عهد الاحتلال أكثر ما يذكر المصريين بها حتى انها فقد كانت التركية الزامية في مدارس الحكومة المصرية ثم صارت اختيارية ثم اضمحلت وتلاشت . وقد استحسن نفر من نجباء الترك المقيمين في القاهرة ان يحتفلوا في كل سنة بتذكار تأسيس الدولة العثمانية وتكونها في مثل الوقت الذي نودي فيه بعثمان الاول سلطانا وكان ذلك في ٤ جمادي الاولى سنة ٦٩٩ للهجرة الشريفة الموافق ١٧ يناير سنة ١٣٠٠ ميلادية وقد جعلوا هذا الاحتفال الاول على الحساب الميلادي ولا أدري أكان ذلك عن اختيار للحساب الميلادي لانه بالاشهر الشمسية أم السبب فيه ان الفكر